الفصل الاول

التاريخ

المبحث الاول

النشأة والأدوار

النشأة :

ان الباحث حينما يتلمس البذور الاولى البلاغة العربية قبل عهد التدوين والتأليف يجد أن العرب عرفوا كثيراً من الاحكام النقدية التي أعانتهم على تفهم الشعر وتذوقه ونقده : والامة التي أنجبت الشعراء الفحول والخطباء المصاقع لابدّ أن تعرف المعالم التي يختطها الشعراء ويترسّمها الخطباء، واذا كان كثير من الاحكام النقدية قبل الاسلام لم يصل الينا مع ما وصل من شعر وخطب وأمثال ، فان بعض تلك الاحكام تناقلتها الالسن وتداولتها الكتب،وقد وصف القرآن الكريم العرب بأنهم أصحاب بيان فقال سبحانه وتعالى : «الرحمنُ: علّم القرآنَ: خلقَ الانسانَ ، علّمه البيانَ» (١) ، وقال عن حسن كلامهم وشدة أسره وتأثيره في النفوس : «ومن الناس من يُعجبك قولُه في الحياةِ الدنيا»(٢) ،ووصف الوليد بن المغيرة القرآن وقال : «والله لقد سمعت من محمد كلاماً ماهو من كلام الانس ولا من كلام الجن، وان له لحلاوةً ، وان عليه لطلاوةً ، وان أعلاه لمثمر ، وان أسفله لمغدق»(٣)»

ويمكن ان يستدل الباحث على ان العرب عرفوا كثيراً من الاحكام النقدية قبل الاسلام بأمرين :

الاول : عقلي لا يمكن إنكاره، وهو انه لا يُصدَّق ان الشعر وصل الى ما وصل اليه في ذلك العهد ، وان الخطابة بلغت ذروتها، وان اللغة اكتملت صورتها

---

(١) سورة الرحمن، الآيات ١ – ٤.

(٢) سورة البقرة، الآية ٢٠٤.

(٣) في سيرة ابن هشام ج١ ص ٢٧٠ : «والله ان لقوله لحلاوة ، وان أصله لمغدق ، وان فرعه لجناة.

من غير ان يكون هناك عقل مدبر لكل ذلك، ومن غير ان تكون هناك اصول عامة تعارف عليها الشعراء والمتكلمون وساروا عليها فيما نظموا أو قالوا؛ ومهما تحدّث الباحثون عن السليقة الصافية والذوق السليم، ومهما وصفوهم بالفطنة والذكاء، فان العقل ليذكر ان يكون ما كان من غير ثقافة ودُرْبة ، وقواعد تضيء لهم الطريق وتفتح أمامهم سبل القول؛

الثاني : نقليّ وهو ما أثر عنهم وما جاء من خطاباتهم ووصف خطبهم؛ وقد كان الخطباء يعتزون ببيانهم ويفخرون بأنفسهم، ولما دخل ضمرة بن ضمرة على النعمان بن المنذر زرى عليه الذي رأى من دمامته وقصره وقلته، فقال النعمان: «لسمع بالمعيدي لا أن تراه»، فقال : «أبيت اللعن، ان الرجال لا تكال بالقفزان (١) ولا توزن بالميزان، وليست بمسوك يستقى بها (٢)، وانما المرء بأصغريه : بقلبه ولسانه ، ان صال صال بجنان، وان قال قال ببيان» (٣) : وكان ضمرة خطيبا فارسا شاعراً شريفا سيداً، وكان يحكم ويضر بالاسجاع:

واستدل الجاحظ من ألفاظ «العيي» و «البكي» و «الحصر» و «القحم» و «الخطل» و «المسهب» على ان العرب قبل الاسلام عرفوا كثيراً من عيوب البلاغة والخطابة، وقال : «وكلام الناس في طبقات كما ان الناس أنفسهم في طبقات، فمن الكلام الجزل والسخيف، والمليح والحسن، والقبيح والسمج، والخفيف والثقيل، وكلّه عربي، وبكل قد تكلموا، وبكل قد تمادحوا وتعايبوا، فان زعم زاعم انه لم يكن في كلامهم تفاضل ولا بينهم في ذلك تفاوت فلم ذكروا العيي والبكي، والحصر والقحم، والخطل والمسهب، والمتشدق والمفيهق، والمهمار والثرثار، والمكثار والهمّار؟ ولم ذكروا الهجر والهذر، والهذيان والتخليط، وقالوا للفصاحة، وفلان

(١) القفزان : جمع قفيز، وهو مكيال.

(٢) المسك : بالفتح وسكون السين : الجلد، وسمي بذلك لانه يسلك فيه الشيء إذا جعل سقاءا.

(٣) البيان والتبيين ج ١ ص ١٧١، ٢٣٧.